عالم لا يستحق حتى الرثاء

-١-

تحت كل ذلك الضجيج الذي يثيره البشر محاولين أن يملؤوا وجودهم به:

تحت ضجيج صراعات السياسة، وتحت ضجيج هرج الأسواق وضراوة حركة البورصات، وقعقعة أسلحة الترسانات، وبلاغة نياشين الجنرالات الذين يعدون عواصف الحروب...

تحت هذر ما لا يحصر أو يحصى من تزاحم الأفكار المعطوبة على امتداد كرة أرضية يبدو أنها خلقت من عطب، وتحت جعجعة الأدب والشعر والتفلسف، أو جعجعة أحاديث ما يسمى النقد الذي يتناول الأدب والشعر والتفلسف وبقية أشكال ما يُدّعى له السمو المعبر عن (الروح١)...

تحت كلام الحب السخيف والكذب المفضوح الفاضح الذي يتبادله من يسمون أنفسهم عشاقاً إلى حين..

تحت قشرة الحفلات الصاخبة التي تخترع بمختلف التسميات كي يمارس البشر فيها صنوف الهراء الذين يخمنون أنهم به يؤكدون "وجودهم" قدام أنفسهم الخربة...

تحت.. وتحت.. وتحت ما لا يعد من أشكال الضجيج المخترع هذا، هناك شيء مخيف بقدر ما هو مسيطر في الأعماق، شيء يبدو كما لو أنه هوة فسيحة، فسيحة، فسيحة

ومظلمة وبلا قرار. إنه الخواء بأقسى ما للكلمة من مـــدلولات، وبأبعد ما لها من وقع قاهر ومرعب: خواء الكائنات تحت قشرة هياكلها من أي إيمان بأي قيمة لشـــيء علـــى الأرض.. إيمـــان يستطيع أن يجعل تلك الهياكل تثق بأنها حقاً ذات قيمة، وأنها حقاً تعرف- ولو قليلاً- إلى أين تتجه، وماذا تريد.

نعم، فقدان إيمانات وانعدام قيم. ويقولون دائماً: (هي الســـوق، فليتكيف الكائن إذاً مع السوق! أهو عصرنا وحده؟!) لكننـــا نحـــن نبصر عصرنا جيداً لأننا نعيش فيه. نعيش ونختبر أكاذيبنا الفقيـــرة المبتذلة المتبادلة، نعيش ونرى أن كل تزويق باطل حتـــى تزويـــق التكالب على "الملكية" وتناهش الذئاب والثعالب على "عظـــام" هـــذا الكوكب البائس المنخور. فأولئك الذين سرقوا أو نهبوا أو أهـــدروا الدماء أو الكرامات.. أو.. أو.. أولئك جميعاً ربمـــا أحســـوا بلـــذة اللحظة التي يضعون فيها أيديهم على ما أرادوا.. على مـــا جعلتـــه أرواحهم الخربة لهم أهدافاً أن كانت لهم أرواح.. على مـــا جـــرهم الخواء إلى لعنته باشتهائهم إياه.. ثم تنقضي لحظـــة اللـــذة كلمحـــة خاطفة ليطفح الخواء مبتلعاً أهمية ما سعوا إلى امتلاكه بكل وسيلة، جاعلاً كل "ثمراتهم الملعونة، تلك بلا قيمة وإن كـــانوا لا يجـــدون مهرباً من وطأة ذلك سوى المزيد من "الفضائح" الجديدة: فضـــائح اللذة العابرة المليئة بدودها وهي تعبر.. مادةً نوعـــاً مـــن الألســـنة الهازئة لوجود الصنف البشري برمته.

-٢-

أحياناً يتلهى أمثالنا بمراقبة من حولهم في محاولة للســـيطرة على هذا الإحساس الفاجع بالخواء. فماذا نرى؟!

حركة بلهاء كأنما أصيب أصحابها بالجنون، أو إنهـــم فعـــلاً

إنما ولدوا لتجسيده:

ذكور يدوخون متراكضين متهارشين، ولكل منهم أقنعته التي لو خمشتها بظفر لتساقطت هشة كاشفة عن وجه كأنما خرج تواً من إحدى لوحات (آلغريكو)... ادعاءات من كل شكل ولون، بعضهم ينصب نفسه وكيلاً شخصياً للإله سبحانه لمجرد أنه اصطنع قيافة خاصة وبعض الأفكار التي لم يتفضل بالتوقف لحظة ليتعرف ما إذا كانت هي التي أمره به الله أم لا، وبعضهم ينصب نفسه وكيلاً للشيطان: من صبي المقهى إلى "أفاضل" المرابين وتجار الصفقات المشبوهة مادياً ومعنوياً، بما لا يحصى من التسميات وتحت ما لا يحصر من القيافات...

وبين أولئك وهؤلاء تأتي أنساق (مخلوقات الحياد) تضع رِجْلاً هنا ورِجْلاً هناك، أو تعوم فوق فراغ تفاهاتها المسكينة وهي تسعى لتُقْبَل (دودة) في هذا البازار الفسيح، وحين تنجح تملأ الدنيا صخباً عن (ذكائها وشطارتها وفهلويتها) مقابل فشل مساعي من لم يحصلوا على ذلك (الشرف الدودي) البازاري العظيم.

أما القلة فتمتعض غائصة في الوحشة، ذاهبة إلى أحلام المعجزات التي لا تجيء، أو إلى جنون معلن حتى ولو لم يقم أحد من تلك القلة بتمزيق ثيابه واكتفى بتمزيق قلبه المزوَّر شعراً أو نثراً أو حكمة أو نقداً.. وكل شيء في النهاية جنونُ ادعاء!!

ذكورة فاشلة تريد أن تحترق ما لا تعرف، يقودها الجنون الذي تخرج أطياف أشباحه من قاع الخواء ليظهر فقدان الإيمانات بأي قيمة لأي شيء سلطاناً حقيقياً على هذا "الملكوت" الترابي التافه، رغم تزيينه بما يُعرف أو لا يُعرف من أقنعة التخريفات والأقوال والأفعال.

وماذا نرى أيضاً، حيث الحركة البلهاء كأنما أصيب أصحابها بالجنون أو أنهم فعلاً قد ولدوا لتجسيده؟!

نساءُ هياكلَ من مساحيق وثيابٍ مزوَّقةٍ وعطور. الأعين تحوص زائغة على مداخل السوق، وما أكثر المداخل! والقلوب مهشمة مأسورة لزيف تطلع الأنثى أن تكون ذكراً ولو معطوباً!! مساواة!! ولذلك فهن يتبعثرن- خائبات- في ما يمكن أن يقال وما لا يمكن أن يقال. والذكر والأنثى يظن كل منهما أنه يخدع الآخر ويمتلكه أو يمتلك ما لديه.

خائبات؟!.. لا. إطلاقاً! الجنون فقط، جنون الادعاء يصنع من أكثريتهن (علاّقات ثياب) و(أقنعة) لعرض مساحيق التجميل والبقية معروفة، أما أقليتهن فتقبع وراء الأستار والقيود التي يطوقن بها أرواحهن قبل أجسادهن..

والكل يكملن مع الذكور سطوة الخواء التي ينتشر فوقها مستنقع السوق.

-٣-

أحقاً أن هذا الجنس هو مخلوق على مثال صورة الإله؟! أم أن الشيطان قد مكّن غوايته له بعدما أنظره الله سبحانه إلى يوم يبعثون ما خلا قلة.. كما تنص الأديان؟!

لا أحد يمكنه الحكم في ذلك، لكن الأمر في ذاته يبدو مأساة من نوع فاجع إن كان الأمر كذلك!!

أم لعل ثمة صحة لتلك النظرية التي خرج بها يوماً أحد الحالمين ممن يهربون من الأرض إلى التفكير بالكون إذ رأى أن وجود البشرية ليس سوى تجربة لكائنات كونية أرقى، زرعتها على هذا الكوكب التافه ثم نفضت يديها منها لمعرفتها بأنها قد

فشلت؟! قد تكون محاولة الإجابة بالتصديق أو النفي مجرد حماقة ممن يحاول أن يجيب.

ولكن، ما دام الوضع البشري هكذا أفلا يستحق سؤال ذلك الكاتب الياباني الذي لا يحضرني اسمه إذ قال:

-هذا الجنس البشري هل تراه يستحق البقاء؟

ثم عقب على ذلك إن لم تخني الذاكرة بسؤال آخر:

-ما أهمية بقائه أو انقراضه ما دام أمره القائم يتفاقم ويسير من سيئ إلى أسوأ؟!

حقاً ما قيمة هذا الجنس البشري بلا إيمانات- أيِّ إيماناتٍ نظيفة- وبلا قيم لا تخرج من مؤخرات ديدان السوق؟!

❑❑